



أ. عزوز هني حيزيه - كلية الآداب واللغات
جامعة سعيدة

إن الكثير منا يفهم الكوميديا على أنها شيء يثير الضحك، ولكن الحقيقة غير ذلك فقد كان لفظ الكوميديا في العصور الوسطى كما أشار نيفيل كوجهيل " يحمل معنى التوافق والمصالحة، وليس الظرف وسرعة البديهة والمرح الصاحب"¹، وكانت عبارة عن قصص تبدأ بمشاكل تعترض طريق السعادة، ولكنها تنتهي وقد أزيلت جميع الصعاب، واستمر هذا المفهوم في عصر النهضة.

ويحمل لفظ الكوميديا مفهومين : المفهوم الأول : هو الضحك وهو أكثر شيوعاً، وقد انتشر عبر العصور، أما المفهوم الثاني : الذي يجعل الكوميديا عبارة عن تحرك نحو السعادة. " إن أول ما يلاحظ عن الضحك هو طبيعته الإشكالية، فقد لاحظ فرويد الذي كان يؤمن بأهمية الضحك بالنسبة للإنسان، كثرة الفكاهات الساخرة والعدائية وشيوعها، بل وتفوقها على تلك الخالية من السخرية، ونحن إذ نضحك نكون في العادة نضحك إما على شخص أو على شيء، وينبع هذا الضحك كما قال نيل في مسرحية لعبة النهاية end Game لبكيت، من الشعور بالخوف وعدم السعادة، وقد لوحظ أن الناس يستمتعون بالضحك على ما يلحق الآخرين من مصائب، وما يصيبهم من تشوهات جسدية"¹.

هناك مشاعر متضاربة، أي أننا قد نشعر بالعطف وكذلك بالاستخفاف من الآخرين، كما جاء به برغسون عندما قال : إننا كثيراً ما نضحك على الأحمب وعلى تشوّهه في بادئ الأمر، ولكننا سرعان ما نتراجع ونشعر بالشفقة والعطف " ويرجع هذا في رأي فرويد إلى نشأة الإنسان وطفولته وما تعرض له من تجارب قاسية، والدليل على ذلك أن كثيراً من الأطفال وربما البالغين أحياناً يستمتعون ويتلذذون بقراءة كتاب ألفي إهانة لجميع المناسبات، all occasions two thous and insult fort² من خلال التحليل النفسي الذي قام به فرويد لشخصية الإنسان الذي يسخر من تشوهات الآخرين، هي نتاج تجارب الماضي ولكن السخرية من الناس قد تؤذيهم وتجرح

مشاعرهم، وفي هذا الشأن يتهم برغسون الكوميديا " بأنها تهتم بالانحرافات التي تصدر عن حماقة وتشغل نفسها بالأعمال التي تخرج عن السلوك الاجتماعي "3 أي أنها محاكاة لما نفتقره من أخطاء في حياتنا اليومية، ويرى بعض الادباء أن الكوميديا قيمة فنية عالية في الأدب حيث تلعب دورا اصلاحيا في المجتمع.

الكوميديا اصطلاحا :

إن لهذا النوع الأدبي سلسلة من المصطلحات " إذ أن قاموس اكسفورد الانجليزي يشتق الاسم من لفظ (Comoedia) كوميديا نقلا عن الكلمة اليونانية (kuuwsia) وهي تعني إما (kupos) المرح الصاحب للهو، أو تعود إلى مصدرها المحتمل (kupn) أي القرية أو (aoisos) أي المغني أو المطرب وهكذا يعود أصل الكلمة، إما شاعر المرح الصاحب أو إلى شاعر القرية، وهي تسمية لا تخلو في حد ذاتها من مغزى هذا الغموض الذي يكتنف اشتقاق الكلمة ذاتها "xiv كما نجد في القاموس نفسه تعريفا مغايرا " الكوميديا مسرحية تؤدي على خشبة المسرح، ذات طابع مسل خفيف ونهاية سعيدة "4 تعتبر الكوميديا دراما تحاكي مادتها الشخصيات من عامة الناس، فتظهر لنا متناقضات حياتهم في إطار مرح وضحك مع لغة بسيطة خالية من التعقيد، وفي غالب الأحيان تكون الكتابة باللهجة العامة، لتقريب المعنى للمتلقى البسيط، إذ أنها تسخر من حياته الاجتماعية بكل عيوبها، كما تسخر من أخلاق الطبقات الراقية وتنتهي غالبا بانتصار الخير أو زواج حبيبين.

النظريات السيكلوجية في تفسير الكوميديا :

إن كل دراسة في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية، إلا ولها مرجعيتها السيكلوجية التي تبرر ظاهرة جنسها، ومنه صار لزاما علينا البحث في الأصول السيكلوجية لميلاد فن الكوميديا في الأدب، إذ يرجع إلى الطقوس والشعائر الدينية التي كانت تقام في اليونان في احتفالات أعياد ديونيزوس " أو إلى أصول اجتماعية تنظر إلى الأدب الكوميدي باعتباره عاملا له قيمته بطريقة ما في علاج النفس "xv والمميز الرئيسي للملهاة عند بعض أفراد الجمهور هو طبقة شخصياتها الاجتماعية " إذا ما افترضنا وجود صلة ثابتة بين الكوميديا والضحك، فليس من المحتمل أن تصدر حكما له وزنه وفائدته في ميدان النقد، إن الظن يقوم لدى البعض بأنه ما علينا إلا أن نكتشف الصيغة التي تفسر الضحك حتى ينجلي أمامنا سر برغسون، ورايبليه وتشوسر وفيلدنغ وجين أوستن وغيرهم "5 فكل من هؤلاء قدم لنا تفسيرا معنا لهذا النوع الادبي، وكل منهم تختلف رؤيته عن الآخرين في فهم الجانب السيكلوجي لوجود الكوميديا. يقول هوبز توماس (thomas hobbes) في شرحه للأسباب التي تدفع الإنسان للضحك، " إننا نضحك إما

بسبب شعور مفاجئ بالسعادة لما أحرزناه من انتصار، أو بسبب تعرض الآخرين للخي والاهانة، ومن هنا فنحن نضحك لشعورنا بالسمو على الآخرين لما في ذلك من اشباع لغورنا ومجال للتححرر اللحظي من إحساسنا بالعجز "6

وهناك أيضا نظرية التنافر

والتعارض التي تحدث عنها شوبنهاور في القرن 19 مستدلا على ذلك في مثاله الآتي " أشار شوبنهاور إلى أنه ممنوع منعا باتا أن يرتجل الممثل وهو على خشبة المسرح، على أنه قد يكون أحد

الأدوار المطلوب منه أدائها، هو أن يمتطي خيلا ويقوم الممثل بالفعل بالقيام بما عين له وإذا بالخييل يسمد الروث، مما يشير بطبيعة الحال ضحك الجماهير، ويستتكر الممثل ركوبه الخيل لإضحاك الجمهور على فكاهاة لم ترد في نص المسرحية الأصلي، ولكن لاشك أن جزءا من التفكه في هذه القصة ينبع من التنافر والتناقض "6



تعد هذه النظرية بمثابة اعطاء حرية للممثل وهو على خشبة المسرح ،فتدفعه إلى الارتجال بما فيه من اضافات على نص المؤلف والمخرج. " الكوميديا ليست سركا تعرض به المساخر التي تدغدغ الحواس، أو يقهقه فيه الجمهور على المهرجين والبهاليل، بل سياق فني أدبي متكامل يهدف إلى مغزى عميق"⁷

تعد الكوميديا فنا أدبيا راقيا شأنه شأن التراجيديا، كل منهما له دور ايجابي في معالجة القضايا الاجتماعية والفلسفية والفنية "فالمؤلف المسرحي الكوميدي لابد أن تختلف مهامه عن مهام لاعبي السيرك أو البهلوان أو البيلياتشو، ذلك أن الأول ينشد من وراء الضحك، تغيير وضع خاطئ استقر بين الناس، لذا يأتي المؤلف المسرحي الكوميدي لكي يكشف ويعري هذا الخطأ بغية فضحه واستبداله بالوضع الصحيح"⁸

أما عن الاستهزاء والسخرية أو الضحك الذي يصدر من البهلوان أو لاعب السيرك أو البيلياتشو، إنما يقصد من ورائه الضحك ولاشيء غير الضحك، وعليه ليس كل ما يثير الضحك ابداع كوميدي.

الكوميديا في السينما المصرية :

المحاولات الأولى للكوميديا في السينما الصامتة :

يعتبر فيلم " البحر بيضحك ليه " للكاتب والمخرج أمين عطا الله، والذي عرض يوم 1928/10/22 أول فيلم كوميدي في السينما العربية، وقام بأداء الأدوار كل من استيفان روستي، ابريزا أستاني، سعاد فهمي، حسن المليجي.

بعد تجربة الكوميديا في الفيلم الصامت، هاهي السينما تطلق أولى ضحكاتها الناطقة، مع نجيب الريحاني وعلي كسار، والتي ظهر فيها نجيب الريحاني في معظم أفلامه بكشكش بيك، وعلي كسار في شخصية عثمان عبد الباسط النوبي الساذج البسيط، " مثل عشرات الأفلام وكان تعاونه مع المخرج توجو مزراحي في أفلام عديدة : عثمان وعلي - سلفني ثلاثة جنيه عام 1939 - ألف ليلة وليلة - علي بابا والأربعين حرامي، وكانت انطلاقة نجيب الريحاني الأهم في السينما مع المخرج نيازي مصطفى، عبر فيلم : " سلامة في خير " الذي أنتج عام 1937 "⁹ اضافة إلى عدة أفلام سينمائية أبدع فيها نجيب الريحاني.

الملاحظ على الأفلام السينمائية المصرية أنها، كانت تتميز بالطابع الكوميدي الغنائي الاستعراضى، خاصة في فترة الأربعينات.

إسماعيل ياسين نجم الكوميديا المصرية :

مع نهاية الأربعينات ورحيل الفنان نجيب الريحاني، بزغ نجم المنولوج اسماعيل ياسين، ذلك الشاب القادم من مدينة السويس، شارك في عدة أفلام سينمائية، وكانت هذه المشاركات ثانوية في أفلام علي كسار وأنور وجدي بعد أن اكتشفه حلمي رفله، " إلى أن أتيح له عام 1949 أن يحصد أول بطولة سينمائية له مع المخرج سيف الدين شوكت في فيلم الناصح "10"، ثم توالى سلسلة من الأفلام باسمه بداية من عام 1955 كونه هو وزميله الفني أبو السعود الابياري مع المخرج فطين عبد الوهاب، ثلاثيا من أهم الثلاثيات في السينما المصرية، بدءا بمغامرات اسماعيل ياسين، اسماعيل ياسين في متحف الشمع، اسماعيل ياسين يقابل ريا وسكينة، اسماعيل ياسين في الجيش، اسماعيل ياسين في البوليس، اسماعيل ياسين في الطيران، اسماعيل ياسين في البحرية، اسماعيل ياسين في مستشفى المجانين، اسماعيل ياسين طرازان، وانتهاء بإسماعيل ياسين في السجن، ومعظم هذه الأفلام كانت من تأليف أبو السعود الابياري، ولازمه في هذه الأفلام رياض القصبجي المعروف بشاويش عطية.

" اعتمدت هذه الأفلام على كوميديا الفارس، والتعبير الكاريكاتوري الفاقع في ملامح الوجه وحركة الجسد، والأداء الصوتي الذي يظهر المشاعر والانفعالات بخشونة وخصوصا لدى ممثل كإسماعيل ياسين، الذي كان وجهه يتمتع بقدر غير قليل من التقاطع الغليظة (شكل الفم، الشفاه، نظرة العينين القادرة على اختزال تعابير البلاهة والطيبة في آن معا) لكن هذه الأفلام التي لم تحمل على صعيد الفكر والمضمون ما يصمد في وجه التحليل اليوم، أضحت ومازالت تضحك "¹¹ يؤكد إسماعيل ياسين في أفلامه موهبته الكوميديا الفائقة الحضور، وقدرته على الإضحاك، مستعينا في ذلك على ملامح وجهه وحركة جسده.

يقول الناقد المصري سامي السلاموني في تحليله لفيلم اسماعيل ياسين في مستشفى المجانين، واصفا هذه

الكوميديا بطريقة ساخرة " أن هذا النوع من الكوميديا الذي كان يقدمه اسماعيل ياسين يمكن تلخيصه ببساطة أنه كوميديا التخلف العقلي والبلاهة - وهذا رأي شخصي جدا أتحمّل مسؤوليته - أدركنا على الفور حجم مأساة السينما المصرية إحدى مآسيها العديدة إن شئنا الدقة ومدى تخلف جمهورنا، الذي يضحك على أشياء كهذه، إلى حد الاندفاع نحو أي فيلم لمجرد أنه يحمل اسم هذا المضحك البدائي، الذي مازال البعض يقول بجرأة إنه كان يضحك له أكثر مما يضحك للريحاني مثلا "12

يبدو أن هذا النقد نقدا ساخرا ولاذعا، يعبر عن رأي الشخص ذاته، فهو ينظر إليه من زاويته الخاصة، ولكن يبقى الفنان الكوميدي اسماعيل ياسين ظاهرة كوميدية شديدة الحضور في السينما المصرية، التي تميل نحو الاهتمام بالتعبير التمثيلي الذي يصوغ الموقف بأسلوب هزلي، " فقد وصل اسماعيل ياسين إلى قلوب الصغار قبل الكبار، وأضحك أجيالا ليس في صالات السينما المصرية في الخمسينيات فحسب، ومهما اختلفنا حول قيمة الكوميديا التي يقدمها انطلاقا من طبيعة موضوعاتها، أو تقنيات الاضحاك التي تقترب من التهريج في أحيان كثيرة، ولا تخلو من لمحات إنسانية مفعمة بالعذوبة، فإن اسماعيل ياسين يبقى معبرا عن ذوق اجتماعي له مزاجه الخاص "13.

يبقى اسماعيل ياسين ضمن النجوم والأعلام التي تركت بصماتها في صناعة الفيلم الكوميدي، وقد اكتسبت تجربته الكوميدية في السينما اهتماما خاصا، لأنه ظل على الدوام أحد أعمدة الفيلم الكوميدي، وواحد من الجسور الأساسية التي يمدّها الفيلم باتجاه الجمهور.



الهوامش

أ : المراجع

- 1 - أحمد صقر - دراسات في المسرح العربي الكوميدي المعاصر - مركز الاسكندرية للكتاب - الاسكندرية - 1999.
- 2 - محمد حمدي ابراهيم - نظرية الدراما الإغريقية - الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان - الاسكندرية 1994.
- 3 - محمد منصور - الكوميديا في السينما العربية - رؤية نقدية تاريخية - مطابع وزارة الثقافة - 2003.
- 4 - نهاد صليحة - المسرح بين الفن والحياة - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر 2000.

ب : المترجمة

- 5 - امولرين ميرشنت - كليفور دلييتس - الكوميديا والتراجيديا - تر : علي أحمد محمود - الكويت - 1978.
- 6 - ت ج - انتلنس - نظرية الكوميديا في الأدب والمسرح والسينما - تر : ماري ادوارد نصيف - مراجعة : د. أمين حسين الرباط - أكاديمية الفنون - وحدة الإصدارات مسرح - د ت.

الفرنسية :

- 1 - Stendhal. Molière. Shakespeare - la comédie et le rire. Imprimerie alençonnaise. Paris. 1934